المسلمون في القرن الخامس عشر الهجري .. والتعامل مع القرآن الكريم واقع وآفاق

الأستاذ الدكتور عيادة بن أيوب الكبيسي
كلية الدراسات الإسلامية والعربية. دبي

الحمد لله القائل في كتابه الكريم: {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا}، فكان دستور هذه الأمة دليلا وهاديا ونصيرا، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم الذي أرسله داعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، وعلى آله وأصحابه وأنصاره وأحبابه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فبدء أقول: جزى الله المنظمين لهذا الملتقى، والقائمين على تسيير أموره خير الجزاء، فإن الاهتمام بأمر المسلمين، والبحث عن أحوالهم وشؤونهم، وما يرقى بهم إلى مصاف الأمم المتقدمة، مما يحبه الله تعالى ويرضاه، وقد وافق هذا الملتقى المبارك رغبة في نفسي، لأدلي بدلوي المتواضع، وأعرض ما كتبته في هذا الخصوص بين يدي الإخوة المشاركين، مما أرجو أن يكون فيه النفع والفائدة بإذن الله تعالى.

وقد قسمت بحثي هذا إلى مقدمة، ومبحثين وخاتمة.

المبحث الأول: في أبرز أسس التعامل مع القرآن الكريم.

نرى أن أبرز أسس التعامل مع الكتاب الكريم، ترتكز على أربعة أمور، وهي:

التلاوة، والحفظ، والفهم، والعمل. وعليه فقد قسمنا هذا المبحث إلى أربعة مطالب:

المطلب الأول: في التلاوة.

والتلاوة تعني: قراءة آيات القرآن الكريم وسوره، إما مجزءا ومفرقا، وإما على طريق الختمة، ويمكن أن نقسم هذه التلاوة إلى قسمين: تلاوة يومية مستمرة، وتلاوة تأملية.

أما اليومية: فهي التي يلازمها المسلم يوميا ولا ينقطع المسلم عنها، وأفضلها ما كان بطريق الختمة، كلما انتهى من ختمة شرع في أخرى وهكذا، وعد النبي النبي صلى الله عليه وسلم هذا من أحب الأعمال إلى الله تعالى، فقد سئل صلى الله عليه وسلم: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: الحال المرتحل، قال: وما الحال المرتحل؟ قال: الذي يضرب من أول القرآن إلى آخره، كلما حل ارتحل[1].

ولا يشترط في هذه التلاوة الكم، إنما الشرط الاستقامة والاستمرار، ويكفي فيها: مراعاة أحكام التجويد، وحضور القلب، واستشعار عظمة المتكلم سبحانه وتعالى.

وأما التأملية: فهي التي تقوم على إعمال الفكر، وتقليب النظر، وذلك بأن يقف القارئ عند الآيات وقفة تأمل طويلة، مرددا لها مستغرقا فيها، مع صدق الوجهة وعمق التدبر، مستلهما فتح الله تعالى. وقد يطول ذلك التأمل، بل ربما استغرقت الآية الواحدة وقفات.

وهذا هو الذي عناه سيدنا علي بن أبي طالب ـــ رضي الله تعالى عنه حين سئل: هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ ـــ فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة أعلمه، إلا فيما يعطيه الله رجلا من القرآن[2]، ونوه به عبد الله بن مسعود ـــ رضي الله تعالى عنه ـــ بقوله: من أراد علم الأولين والآخرين فليثور[3] القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين [4].

ولهذه القراءة التأملية أدلة من فعل النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين، فمن ذلك:

ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه قام ليلة بآية يرددها، فعن أبي ذر ـــ رضي الله تعالى عنه ـــ قال: قام النبي صلى الله عليه وسلم بآية حتى أصبح يرددها، والآية {إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم} [5].

وقام تميم الداري ـــ رضي الله تعالى عنه ـــ ليلة بهذه الآية: {أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون}[6].

وقام سعيد بن جبير ـــ رحمه الله تعالى ـــ ليلة يردد هذه الآية: {وامتازوا اليوم أيها المجرمون}[7].

وقال مقاتل بن حيان: صليت خلف عمر بن عبد العزيز فقرأ: {وقفوهم إنهم مسؤولون}[8] فجعل يكررها لا يستطيع أن يجاوزها، يعني من البكاء [9].

وعن محمد بن الحسن ـ رحمه الله تعالى ـ قال: قام أبو حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ ليلة بهذه الآية:{بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر} [10]، ويبكي ويتضرع إلى الفجر [11].

والأمثلة على هذا كثيرة، تدل على مدى اهتمام السلف بهذه القراءة، متأسين بالنبي صلى الله عليه وسلم في ذلك، حيث إن القراءة بالتدبر والتفهم هي المقصود الأعظم ـ كما يقول السيوطي ـ والمطلب الأهم، وبه تنشرح الصدور وتستنير القلوب [12].

واقع المسلمين اليوم:

إن حظ المسلمين من النوع الأول لا بأس به، وإن المصاحف على كثرتها وتعدد طبعاتها لا تفي بحاجة المسلمين، فلم تزل الطلبات تترى على المراكز الإسلامية في شتى أصقاع العالم الإسلامي ترجو تزويدها بنسخ من المصحف الشريف، مما يدل على أن المسلمين حريصون على تلاوة كلام ربهم، وإن للقراء في المساجد دويا في القرآن كدوي النحل، لا سيما في شهر القرآن شهر رمضان المبارك، وإن كان من هؤلاء من لا يقرأ إلا في المسجد أو في شهر رمضان فقط، حتى إذا ما انتهى الشهر الكريم عادوا إلى ما كانوا عليه من الهجران والغفلة.

ولا يخفى أن حظهم في النوع الأول من القراءة أكثر بكثير منه في النوع الثاني، ومع صعوبة التتبع لذلك، إلا أن الظاهر من ملاحظة القراء أن أغلبهم لا يراعون الوقوف الطويل عند الآية، ولا يعنون بترديدها وتكرارها، وربما كان هم الكثيرين نهاية السورة، أو الوصول إلى الختمة.

الأمر الذي يقتضي من الدعاة والخطباء والوعاظ والمذكرين التنبيه إلى هذا، وتذكير المسلمين بأهمية هذا النوع من التلاوة، وبيان فوائده وثماره، وقد كان السلف يفصحون عن هذا، يقول أحدهم:

لي في كل جمعة ختمة، وفي كل شهر ختمة، وفي كل سنة ختمة، ولي ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد، قال الإمام الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ وذلك بحسب درجات تدبره وتفتيشه[13].

ويقول الآخر: إني لأفتتح السورة فيوقفني بعض ما أشهد فيها عن القراءة منها حتى يطلع الفجر.

إن لقراءة التأمل ثمارا تنعكس آثارها على سلوك القارئ وتصرفاته فيعرف بذلك، وواقع المسلمين اليوم لا يشهد بذلك، وهو ما سوغ لنا القول بأن حظ

الكثيرين منهم في النوع الأول أوفر منه في هذا النوع، ثم إن ما ذكرناه في المطلب الثالث يرجح ما ذهبنا إليه هنا، لتوقف التأمل المفيد على الفهم كما لا يخفى ـــ والله تعالى أعلم بخلقه ـــ.

المطلب الثاني: الحفظ.

ولا يخفى ما له من مكانة وأهمية، ويكفي تنويها بقدره وعلو مقام أصحابه أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم سيد الحفاظ وأولهم، وأن يتسابق أصحابه الكرام ـــ رضي الله تعالى عنهم ـــ في ذلك حتى حفظه الجم الغفير.

وكما قسمنا التلاوة إلى قسمين، يمكن أن نقسم الحفظ كذلك:

الأول: الحفظ الكامل لكتاب الله تعالى، وذلك هو القدح المعلى ومنتهى الشرف وغاية السبق ومما يدل على هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم: (يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارق، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها) [14].

وإذا كانت درج الجنة بعدد آي القرآن ـــ كما جاء في الأثر ـــ، إذا كان ذلك كذلك، تبين لك عظم منزلة حافظ القرآن،وعلو مكانه في الجنة ،مكانته.

فمن استوفى قراءة جميع القرآن، استولى على أقصى درج الجنة في الآخرة ـــ كما يقول الإمام الخطابي ـــ ومن قرأ جزء منه كان رقيه في الدرج على قدر ذلك، فيكون منتهى الثواب عند منتهى القراءة[15].

وفي هذا يقول أبو أمامة [16]ـــ رضي الله تعالى عنه ـــ: اقرءوا القرآن، ولا تغرنكم هذه المصاحف المعلقة، فإن الله لا يعذب قلبا وعى القرآن[17].

والثاني: حفظ بعض أجزاء الكتاب الكريم، أو بعض سوره وآياته.

وفي هذا خير كثير، إذ مالا يدرك كله لا يترك كله، ولأن يرتقي في بعض درج الجنة أفضل من أن لا يضع رجله في الدرج أصلا، ولأن يكون في قلبه بعض النور والخير، أحسن من أن يكون مظلما خربا.

ففي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب) [18].

والأفضل في هذه الحال أن ينتقي بعض السور والآيات ذات الخصائص التي نوهت بها السنة المطهرة، كآية الكرسي التي هي أعظم آية في القرآن[19]، وكالآيات العشر من أول سورة الكهف وآخرها[20].

وكسورتي البقرة وآل عمران[21]، وسورتي يس والدخان [22]، وسورتي

السجدة والدهر[23]، وسورة الملك[24]، والمعوذات[25]، ونحو ذلك من الآيات والسور الكريمة.

واقع المسلمين اليوم:

وكما قلنا في التلاوة، نستطيع أن نقول هنا من أن المسلمين اليوم لهم حظ طيب ونصيب لا بأس به من هذا الحفظ، لا سيما في القسم الثاني، فلا يكاد قلب مسلم يخلو من بعض سور من كتاب الله تعالى وآياته.

وقد بدا الاهتمام بحفظ كتاب الله تعالى في هذا القرن ظاهرا، ودور التحفيظ ومراكزه متوافرة، وحلقات التحفيظ منتشرة في المساجد وغيرها، حتى إن كثيرا ممن لا يحسن العربية يحفظ القرآن لا يسقط منه حرفا، ومراكز التحفيظ في تركيا وباكستان وغيرهما من بلاد المسلمين غير العربية لا تكاد تحصى.

ومن ذلك التشجيع على حفظ كتاب الله تعالى، بما يقام من مسابقات دولية ومحلية في كثير من بلاد المسلمين، وما يرصد لذلك من جوائز قيمة، فمن أبرز المسابقات الدولية في حفظ القرآن الكريم:

ـــ مسابقة القرآن الكريم الدولية التي تعقد في رحاب المسجد الحرام بمكة المكرمة.

ـــ مسابقة القرآن الكريم الدولية التي تعقد في دبي، برعاية محمد بن راشد وزير الدفاع بدولة الإمارات العربية المتحدة.

ـــ مسابقة القرآن الكريم الدولية التي تعقد في القاهرة بجمهورية مصر .

ـــ مسابقة القرآن الكريم الدولية التي تعقد في طهران بالجمهورية الإسلامية الإيرانية.

وغير ذلك من المسابقات التي يتنافس فيها حفاظ القرآن الكريم في العالم الإسلامي الكبير، سواء كان بحفظ كامل كتاب الله تعالى، أو حفظ بعض الإجزاء التي تحددها لجنة المسابقة.

وأما المسابقات المحلية، فلا يكاد بلد مسلم يخلو من ذلك، إضافة إلى المسابقات التي تعقد في المساجد والمراكز ودور التحفيظ التي لا تخضع إلى رقم معين لكثرتها وانتشارها، والحمد لله رب العالمين.

ومما يشار إليه هنا أن هذه المسابقات ـــ دولية كانت أم محلية ـــ تتفاوت من حيث الدعم المالي والمعنوي، وحسن التنظيم والإعداد، وكثرة المشاركين وقلتهم، ولسنا هنا بصدد ذكر الفوارق بين هذه المسابقات، إنما أردنا الإشارة إلى

الواقع الذي يعيشه المسلمون اليوم، وهذا أمر يبشر بخير، مصداقا لقوله تعالى: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}.

المطلب الثالث: الفهم.

وهذا هو المقصود الأكبر من إنزال القرآن الكريم، كما قال تعالى: {كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب} [26].

وإذا كان العمل هو لب لباب التعامل مع الكتاب الكريم ـــ على ما سيأتي ـــ فإن الفهم هو مفتاح العمل بلا ريب.

ولا يخفى أن هذا الكتاب المجيد قد اشتمل على أحكام ونظم ومبادئ وقواعد في مختلف نواحي الحياة السياسية والاجتماعية والجهادية والقضائية والإنسانية والمالية والشخصية وغيرها من شؤون الحياة المتعلقة بأمور الناس في هذا الكون العظيم، وأنه الكتاب الذي حوى بين دفتيه مع هذا ما يعقبه من الجزاء في حياة الخلود في العالم الأخروي حيث الثواب والعقاب.

ومما يدل على هذا وغيره قوله تعالى: {ما فرطنا في الكتاب من شيء}[27]، وقوله جل وعلا: {ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء} [28].

وصدق من قال:

كتاب الله يحوي كل شيء • • • وسنة أحمد المختار شرحه

وهذا وغيره يحتاج إلى بذل الجهد وإمعان النظر من أجل فهم ما أودع الله تعالى فيه من الحكم والأحكام، والأسرار والمعارف والعلوم.

ويمكن أن نقسم الفهم إلى قسمين:

الأول: فهم لمعاني مفردات القرآن، وما لا بد منه في سياق الكلام.

والثاني: الفهم الدقيق، والتأمل العميق، للوصول إلى معرفة مقاصد القرآن ومراميه، ويدخل في هذا: فهم ظواهر الآيات وبواطنها، وما في ذلك من الإشارات العلمية، واللطائف الروحية، ولا غرابة في هذا فإن كتاب الله تعالى بحر زخار لا ساحل له.

قال الإمام الغزالي ـــ رحمه الله تعالى ـــ: اعلم أن من زعم أن لا معنى للقرآن إلا ما ترجمه ظاهر التفسير، فهو مخبر عن حد نفسه، وهو مصيب في الإخبار عن نفسه، ولكنه مخطئ في الحكم برد الخلق كافة إلى درجته التي هي حده ومحطه، بل الأخبار والآثار تدل على أن في معاني القرآن متسعا لأرباب الفهم، قال علي ـــ رضي الله تعالى عنه ـــ: إلا أن يؤتي الله عبدا فيما في القرآن،

فإن لم يكن سوى الترجمة المنقولة، فما ذلك الفهم؟ [28].

واقع المسلمين اليوم:

إذا كان حظ مسلمي هذا الزمن لا بأس به في المطلبين السابقين، فإن بضاعتهم في هذا المطلب مزجاة، وإن جل مسلمي اليوم لا يكادون يفهمون مفردات القرآن الكريم فضلا عن مقاصده ومراميه!!

ولا أقول إن هذا الضعف يكثر في أوساط العوام وغير المثقفين، ولكنك تجده ظاهرا في طلاب المدارس والمعاهد والجامعات!!

ومما يؤسف عليه أن ترى كثيرا من هؤلاء غير مكترثين بما هم عليه من جهل بمراد الله تعالى، فكل همهم أن يقرؤوا الآيات والسور ويحفظوها، وكأن الله تعالى لم يطالبهم بفهمها وإدراك مراده بها!!

والأمر في هذا غير محتاج إلى تحقيق وتدقيق، فيكفي أن تسأل من شئت من هؤلاء عن بعض مفردات القرآن، أو مقاصد الآيات لتقف على الحقيقة، وعلى مدى علم هؤلاء بكلام ربهم وفهمهم له.

ولكن الصحوة التي سرت بين أوساط المسلمين، نبهت الكثيرين إلى ضرورة قراءة كتاب الله تعالى قراءة تأمل وتدبر، ولعل توافر التفاسير الميسرة، وكثرة المختصرات في التفسير، وانتشار التعريف بمفردات القرآن، ـــ والأمر لم يزل بحاجة إلى مزيد من النشر والتبسيط والتسهيل ـــ أقول: لعل هذا، ومثله أشرطة الكاسيت المسموعة والمرئية، واستعمال التقنيات الحديثة بعرض تلك المعاني المبسطة على صفحات شبكة المعلومات الدولية (الإنترنيت)، يساعد بإذن الله تعالى وتوفيقه على التقليل من هذه الظاهرة، ويحد من الجهل المستشري بين المسلمين في هذا المضمار.

هذا في النوع الأول من الفهم، وهو معرفة معاني المفردات القرآنية، وما لا بد منه في سياق الكلام، مما لا يستغني عنه قارئ للقرآن، وإلا أصبح كالببغاء يردد ما لا يفقه معناه!!

وأما بالنسبة للنوع الثاني: فقد لا يقل عن المعنى الأول، حيث إن نسبة ذلك تعد ضئيلة بالنسبة لقرون الإسلام الزاهرة.

ومع هذا فلا يمكن تجاهل ما يبذله العلماء من جهود مشكورة في تجلية الإعجاز العلمي للقرآن، والكشف عما أودع الله تعالى في كتابه من المعارف والأسرار التي قال عنها سبحانه وتعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم

حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد}[30].

ومثل ذلك ما قدمه بعض العلماء الأجلاء ـــ جزاهم الله خيرا ورحمهم رحمة واسعة ـــ من تفاسير قيمة، جاءت مواكبة لروح العصر من التبسيط، وحسن العرض والتنسيق، نذكر منها:

ـــ الأساس في التفسير للشيخ سعيد حوى.

ـــ التفسير المنير للأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي.

ـــ أيسر التفاسير للشيخ الجزائري.

ـــ صفوة التفاسير للشيخ علي الصابوني.

ـــ مواهب الرحمن لشيخنا العلامة عبد الكريم المدرس.

ـــ في رحاب التفسير للشيخ عبد الحميد كشك.

ـــ نحو تفسير موضوعي للشيخ محمد الغزالي.

ـــ التفسير البياني للدكتورة عائشة بنت الشاطئ.

ـــ والتفسير الدعوي الذي أعدته زينب الغزالي.

وغير هذا من البحوث والكتب التي تعنى بخدمة القرآن الكريم وعلومه، ولكن هنا نتساءل: كم نسبة الذين يقرءون تلك الكتب ويستفيدون منها؟!!

إن مما يؤسف عليه أن نرى كثيرا من أبناء هذا الزمن لا يعبأون بالقراءة، ولا يولونها اهتماماتهم، مما يجعل تلك الكتب قليلة التأثير في حياة الأمة، ومن هنا لزم أن تتظافر الجهود في إيجاد الوسائل المساعدة والمحببة للقراءة وحب الاستفادة، وأن يكون للتقنية الحديثة إسهاما مباشرا في هذا.

قال الإمام القرطبي في تفسيره:

وينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن، فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه، فينتفع بما يقرأ، ويعمل بما يتلو، فما أقبح لحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم ما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه؟ وما أقبح أن يسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه، فما مثل من هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفارا [31].

ولا يخفى أن عدم الفهم سبب مهم في عدم العمل، وعدم المعرفة بمقاصد القرآن عامل مهم في سوء تطبيق نصوصه، وهو ما سنوضحه في المطلب الآتي.

المطلب الرابع: العمل.

وهو لب لباب التعامل مع الكتاب الكريم، قال تعالى: {وهذا كتاب أنزلناه

مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون} [32] ومن الضياع والضلال أن نعد ما تقدم من المطالب هو غاية التعامل مع القرآن، فيصدق علينا المثل السيئ الذي ضربه الله تعالى في القرآن لأمثال هؤلاء:

{مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا}الآية [33]، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أهمية العمل بكتاب الله تعالى، ونوه بمكانته حيث قال صلى الله عليه وسلم: (المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة طعمها طيب وريحها طيب، والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن ويعمل به كالتمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كالريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كالحنظلة طعمها مر أو خبيث وريحها مر) [34].

وقد تواترت الآثار عن السلف الصالح ـــ رحمهم الله تعالى ـــ بمراعاة هذا الجانب، وإعطائه الأولوية، والتنادي برفعة من وفق إليه، والتشهير بمن كان على خلاف ذلك.

نكتفي من ذلك بقول ابن مسعود ـــ رضي الله تعالى عنه ـــ: إنا صعب علينا حفظ ألفاظ القرآن وسهل علينا العمل به، وإن من بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن ويصعب عليهم العمل به، وقال: ليس حفظ القرآن بحفظ الحروف، ولكن إقامة حدوده [35].

ولنكن على ذكر مما تقدم عن القرطبي قبل قليل.

ثم إن العمل في القرآن ينقسم إلى قسمين:

الأول: عمل ذاتي قاصر على النفس، يقوم على امتثال الأوامر واجتناب المناهي، ومراعاة الأخلاق والآداب، بمعنى أخذ النفس ومجاهدتها للتحقق بذلك.

والثاني: عمل متعد، بمعنى: إيصال الخير إلى الغير، أي الدعوة والتذكير من أجل رد الناس إلى الله تعالى، وحثهم على العمل بالقرآن، إذ ليس العلم به مقتصرا على تطبيق أحكامه على النفس والاجتهاد في إصلاحها وتهذيبها، بل لا بد من دعوة الآخرين، قال تعالى: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن} [36].

واقع المسلمين اليوم:

إذا كان التقصير في فهم القرآن من أبناء هذا الزمن ظاهرا، فإن تقصيرهم في العمل به أظهر، ومن المؤسف أن يكون تطبيق كتاب الله تعالى في حياة أغلب

الناس اليوم ـــ على الوجه الذي يريده الله تعالى ـــ مهملا، ولكأني بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول ما حكاه الله تعالى عنه: {وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا}!!

أما على مستوى الحكم، وأنه هو الدستور الذي يرجع إليه في صغير الأحكام وكبيرها، وأنه هو الذي يسير سياسة الدول، فلا أظن أن ذلك يخفى على أحد!!

وأما على مستوى الأفراد والشعوب، فالأمر في هذا بين ـــ أيضا ـــ، وإن نظرة إلى واقع عموم المسلمين في العالم الإسلامي الكبير، يغنيك عن التماس الأدلة والبراهين!!

ومن عجب أن يعنى المسلمون بقراءة القرآن على أمواتهم، وقد يكونون ممن أهمل العمل بالقرآن في حياتهم!!

فمثلا: تموت المرأة وقد كانت كاشفة لمفاتن جسمها غير ملتزمة بالحجاب، ترى فماذا تقول إذا قرأوا عليها بعد موتها مثل قول الله تعالى: {يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهم من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما} [37]

ويموت من ولاه الله تعالى أمر المسلمين وهو لم يحكم بينهم بما أنزل الله، فيقرءون عليه القرآن، ترى فما هوقائل إذا قرءوا عليه مثل قول الله تعالى: {وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون}!! [38].

وقل مثل هذا فيمن يتعامل بالربا أو القمار، وفيمن يزني أويسرق أويغش أويخون، أويقصر في حقوق الله تعالى أوحقوق عباده، وفيمن يفسد في الأرض ويسعى في خرابها، ونحو ذلك من أرباب المعاصي والتقصير الذين يموتون من غير توبة ولا إنابة.

أليس هذا من المضحك المبكي في واقع المسلمين اليوم!! وكأنهم يرون أن القرآن إنما أنزل ليقرأ على الأموات، وأن هذه القراءة كافية في غسل الخطايا ومحو السيئات!!

ولا أريد أن استطرد في الحديث عن تقصير المسلمين في العمل بكتاب ربهم في هذه الأيام، وإنما أريد أن أركز في الحديث عن كلمتين في كتاب الله

تعالى أرى أن إخلال المسلمين بهما كان سببا مهما في كل ما لحقهم من تأخر وضياع [39]، وهو ما سأفرده بالحديث في المبحث القادم إن شاء الله تعالى.

وقبل أن أنتقل إلى ذلك، أود أن أقول:

إن كلامنا هذا لا ينسحب على كل المسلمين، حيث إن الواقع يشهد بأن هناك وعيا متزايدا في الأمة، وأن التصحيح أخذ طريقه إلى كثير من المسلمين، وأن الصحوة بدأت تعمل عملها في واقع الناس، وصيحات الدعوة للعودة إلى المنابع الصافية للإسلام، وتطبيق أحكامها في حياة الناس بدأت تتعالى هنا وهناك، مما يبشر بمستقبل مشرق لهذه الأمة، وهو أمر وشيك التحقق بإذن الله تعالى.

المبحث الثاني:

نموذج من واقع المسلمين في التعامل مع كتاب الله تعالى.

النموذج الذي أردت أن أضربه في هذا المبحث، يتمثل في آيتين من كتاب الله تعالى، وقفت عندهما طويلا، وتأملت فيهما كثيرا، فرأيت أن بينهما ارتباطا وثيقا، وتشكلان مقصدا مهما من مقاصد القرآن الكريم، وأن العمل بمقتضاهما كفيل بتحقيق سعادة الدارين.

تلكما الآيتان هما:

قوله تعالى: {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم}[40].

وقوله تعالى: {فاتقوا الله ما استطعتم}[41].

والذي لفت نظري فيهما هو لفظ الاستطاعة الوارد في الآيتين الكريمتين، حيث إن هذا اللفظ لم يرد بهذا المعنى في موضع آخر من الآيات.

المطلب الأول: في تعريف كل من الاستطاعة والتقوى والقوة.

تعريف الاستطاعة:

الاستطاعة: مشتقة من الطوع، كأنها كانت في الأصل: الاستطواع، فلما أسقطت الواو جعلت الهاء بدلا منها، مثل قياس: الاستعانة والاستعاذة.

والعرب تقول: تطاوع لهذا الأمر حتى تستطيعه، ثم يقولون: تطوّع أي: تكلف استطاعته [42].

والاستطاعة: هي القدرة على الشيء، فهي والقدرة والقوة والوسع والطاقة: متقاربة في المعنى في اللغة [43].

وقال الراغب [44]: وهي (أي الاستطاعة) عند المحققين: اسم للمعاني

التي بها يتمكن الإنسان مما يريده من إحداث الفعل [45].

وهكذا نرى أن المعاجم تلتقي في تحديد معنى الاستطاعة، ومن خلال ما تقدم نستطيع أن نقول في تعريفها بأنها:

التمكن من الإتيان بالفعل وفق الوسع.

وهذا هو المعنى المقصود في قوله تعالى: {ما استطعتم}، وهو ما طلبه الشرع الشريف في جميع التكاليف الشرعية بقوله تعالى: {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها} [46].

تعريف القوة:

القوة ــ بضم القاف وتشديد الواو ــ: ضد الضعف، جمع قُوى ــ بضم القاف وكسرها ــ كالقواية ــ بالكسر ــ، قوي الضعيف كرضي قوة ــ كان ذا طاقة على العمل ــ فهو قوي، والجمع أقوياء، وقوي على الأمر: أطاقه، وتقوّى واقتوى وقوّاه الله تعالى تقوية، قال رؤبة: وقوة الله بها اقتوينا [47].

والقوة: هي تمكن الحيوان من الأفعال الشاقة، وتقدم أنها تأتي بمعنى القدرة [48].

وقال ابن عاشور ــ رحمه الله تعالى ــ: والقوة حقيقتها حالة في الجسم يتأتى له بها أن يعمل ما يشق عمله في المعتاد، فتكون في الأعضاء الظاهرة مثل قوة اليدين على الصنع الشديد، والرجلين على المشي الطويل، والعينين على النظر للمرئيات الدقيقة، وتكون في الأعضاء الباطنة مثل قوة الدماغ على التفكير الذي لا يستطيعه غالب الناس، وعلى حفظ ما يعجز عن حفظه غالب الناس، ومنه قولهم: قوة العقل [49]، وقال: وتطلق مجازا على شدة تأثير شيء ذي أثر، وتطلق ــ أيضا ــ على سبب شدة التأثير، فقوة الجيش شدة وقعه على العدو، وقوته ــ أيضا ــ سلاحه وعتاده، وهو المراد هنا [50].

المراد بالقوة في الآية الكريمة:

ذهب العلماء في بيان المراد بالقوة في الآية الكريمة مذاهب، أظهرها: أن المراد بها الرمي لما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال على منبره ثلاثا: ألا إن القوة الرمي [51].

ولو حملنا قوله صلى الله عليه وسلم: هذا على أنه حصر لمعنى الكلمة، وتحديد لبيان المراد منها، لما جاز لأحد أن يعمل فكره فيها، إذ لا بيان بعد بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن كثيرا من العلماء يرى: أن النبي صلى الله

عليه وسلم إنما أراد بيان أهم أنواع الأسلحة وأكثرها أثرا، وأن قوله هذا نظير قوله صلى الله عليه وسلم: (الحج عرفة) [52]، وقوله صلى الله عليه وسلم: (الندم توبة)[53].

فكما أن ذكر عرفة لا ينفي اعتبار الإحرام والطواف وغيرهما من أركان الحج، وكما أن ذكر الندم لا ينفي اعتبار الاستغفار والإقلاع عن المعصية من لوازم التوبة، كذلك فإن ذكر الرمي لا ينفي اعتبار أيّ نوع من أنواع الأسلحة.

وإلى هذا ذهب الإمام ابن جرير الطبري حيث قال ـ رحمه الله تعالى ـ بعد أن ذكر الأقوال: والصواب من القول في ذلك أن يقال:

إن الله أمر المؤمنين بإعداد الجهاد وآلة الحرب وما يتقوّون به على جهاد عدوّه وعدوّهم من المشركين من السلاح والرمي وغير ذلك ورباط الخيل، ولا وجه لأن يقال: عنى بالقوة معنى دون معنى من معاني القوة، وقد عمّ الله الأمر بها.

فإن قال قائل: فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بين أن ذلك مراد به الخصوص بقوله: (ألا إن القوة الرمي) قيل له: إن الخبر وإن كان قد جاء بذلك فليس في الخبر ما يدل على أنه مراد بها الرمي خاصة دون سائر معاني القوة عليهم، فإن الرمي أحد معاني القوة، لأنه إنما قيل في الخبر: (ألا إن القوة الرمي) ولم يقل: دون غيرها.

ومن القوة ـ أيضا ـ السيف والرمح والحربة، وكل ما كان معونة على قتال المشركين، كمعونة الرمي أو أبلغ من الرمي فيهم وفي النكاية منهم [54].

تعريف التقوى:

التقوى: بمعنى الاتقاء، يقال: وقاه وقيا ووقاية: صانه كوقاه، واتقيت الشيء وتقيته أتقيه، واتقيه تقى وتقية بقاء ككساء: حذرته، والاسم: التقوى، أصله: تقيا، قلبوه للفرق بين الاسم والصفة كخزيا وصديا.

وقول الله عز وجل: {هو أهل التقوى} [55] أي: أهل أن يتقى عقابه، ورجل تقيّ من أتقياء وتقواء[56].

وفي النهاية: وقيت الشيء أقيه: إذا صنته وسترته عن الأذى [57].

فالتقوى في اللغة: بمعنى الاتقاء، وهو اتخاذ الوقاية [58]، والوقاية: حفظ الشيء مما يؤذيه ويضرّه. يقال: وقيت الشيء أقيه وقاية ووقاء [59].

وأما في الاصطلاح: فقد تعددت أقوال العلماء في تعريف التقوى، فمن

ذلك:

أنها المحافظة على آداب الشريعة.

1ـــ أن يتقي العبد ما سوى الله تعالى.

2ـــ ترك حظوظ النفس ومباينة النُهى.

3ـــ أن لا ترى نفسك خيرا من أحد.

4ـــ الاحتراز بطاعة الله عن عقوبته، وهو صيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك

5ـــ حفظ النفس عما يُؤثم، وذلك بترك المحظور، ويتم ذلك بترك بعض المباحات [60].

6ـــ التقوى فيما وقع من المكروهات بالندم والإقلاع مع العزم على ترك العود، وفيما لم يقع بالاحتراس عن أسبابه [61].

ونختار من هذه التعريفات ما نلتقي عليه، وهو:

المحافظة على آداب الشريعة، وذلك بامتثال الأوامر، واجتناب النواهي، والتسليم للقضاء والقدر.

وبذلك تصان النفس عن عقوبة الله تعالى وأسباب سخطه.

ثم إن التقوى مراتب:

أدناها: اتقاء الشرك بالله تعالى، وأعلاها: اتقاء ما سوى الله تعالى [62].

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا لما به البأس)[63].

والمراد بالتقوى في الآية الكريمة: بذل الجهد والوسع، أي ابذلوا فيها استطاعتكم، والزموا أوامر الله تعالى ونواهيه، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، والعمل بما يقرب إليه ما أطقتم وبلغه وسعكم [64]، قال مقاتل: أي ما أطقتم، يجتهد المؤمن في تقوى الله ما استطاع [65]، وذلك عين ما يراد بها في الآيات الأخرى، وهو ما تم اختياره في تعريفها، وذلك واجب كل مسلم ومسلمة، وهم يتفاوتون في التقوى بقدر ما يتحلون به من مراتبها.

ومما ينبغي التنبيه عليه: أن التقوى لا تعني العصمة، فإن المتقي قد يعصي، غير أنه لا يصر على المعصية، قال تعالى: {إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون}[66]، ومن هنا نقول: إن المعصية

ليست في المعصية إنما في الإصرار عليها.

فالتذكر والإبصار من التقوى، وهذا من معاني الاستقامة المستفادة من {ما} المصدرية الظرفية، وهو ما أشار إليه ابن عاشور ـــ رحمه الله تعالى ـــ في تفسير قوله تعالى {ما استطعتم} حيث قال: ما مصدرية ظرفية، أي مدة استطاعتكم، ليعم الأزمان كلها،ويعم الأحوال تبعا لعموم الأزمان، ويعم الاستطاعات، فلا يتخلوا عن التقوى في شيء من الأزمان [67].

ومن التقوى: الدعوة إلى هذا الدين، ونشره بين العالمين، وذلك يندرج تحت بند اتباع الأوامر المتقدم في تعريف التقوى، إذ من الأوامر الإلهية قوله تعالى: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة}[68]، والخطاب وإن كان موجها إلى النبي صلى الله عليه وسلم إلا أنه يعم الأمة كلها إذ لا دليل على التخصيص، يؤيده قوله تعالى: {ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين}، ومن المعلوم من قواعد الشرع أن الأمة نائبة عن نبيّها صلى الله عليه وسلم، كما هو واضح من قوله تعالى: {وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ}، جاء في تفسيرها عن محمد بن كعب القرظي ـــ رحمه الله تعالى ـــ أنه قال: (من بلغه القرآن فكأنما رأى محمدا صلى الله عليه وسلم وكلمه)[69]، ومن المعلوم أ أيضا ـــ أنه بعد انتقال النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى فإن أمانة التبليغ تتحملها أمته من بعده ـــ صلوات الله وسلامه عليه

أقسام الدعوة:

يمكن أن نقسم الدعوة ـــ هنا ـــ إلى قسمين: دعوة فردية، ودعوة جماعية.

أما الدعوة الفردية: فهي التي ابتدأها صلى الله عليه وسلم، وقام بها صلى الله عليه وسلم خير قيام، فقد كان يعرض نفسه على القبائل والأشخاص يدعوهم إلى الله تعالى، ولم يكن ما لاقاه صلى الله عليه وسلم من صنوف الأذى وألوان العذاب حسا ومعنى، ليعوقه عن تبليغ ما كلفه الله تعالى به، أو يصده عن ذلك طرفة عين، وهو القائل صلى الله عليه وسلم: أخفت في الله ولم يخف أحد، وأوذيت في الله ولم يؤذ أحد، وسيرته العطرة صلى الله عليه وسلم طافحة بنماذج كثيرة من ذلك، ومحاورة عمه أبي طالب معه في ذلك شهيرة، وفيها يقول صلى الله عليه وسلم: والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه.

ونستطيع القول بأن هذه الدعوة قائمة في الأمة لم تنقطع، فلم يزل أفراد من هذه الأمة يقومون بواجب الدعوة الفردية، سواء مع الكفرة في دعوتهم إلى الإسلام، أم مع عصاة المسلمين في دعوتهم إلى التمسك بالدين، والحرص على التزام أحكامه، والتحلي بآدابه، وهم في هذا متفاوتون نشاطا وضعفا.

ولهذه الدعوة أهمية كبرى، وفوائدها لا تحصى، فعلى كل مسلم أن يحاسب نفسه ليرى ما نصيبه من ذلك، وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم، وكم فرح النبي صلى الله عليه وسلم عندما أسلم الغلام اليهودي، حتى إنه صلى الله عليه وسلم أعرب عن فرحه بقوله صلى الله عليه وسلم: الحمد الله الذي أنقذه بي من النار.

وأما الدعوة الجماعية:

فهي التي أسسها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد دخول الناس في دين الله، ووجود الجماعة الصادقة من أصحابه ـــ رضي الله تعالى عنهم ـــ، حيث كان يكلفهم صلى الله عليه وسلم بإرشاد الناس وتوجيههم، وهو الذي أرسل مصعب بن عمير ـــ رضي الله تعالى عنه ـــ قبل هجرته إلى المدينة المنورة، وهو الذي أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن، وكم من صاحبي كان يقول له: أنت نذير قومك، والمرسل في هذه النماذج ونحوها وإن كان واحدا إلا أن ذلك إنما تم عن تنظيم دقيق، وهو مرتبط بالقيادة العليا، وفق ضوابط وأسس واضحة، وتوجيهات سديدة، كما هو مبين في كتب السيرة وفقهها.

ونستطيع القول ـــ أيضا ـــ بأن هذه الدعوة مستمرة في الأمة، وإن كانت تتفاوت نشاطا وضعفا، وتقيدا وإخلالا بالضوابط أوتقلتا منها، مع تغاير في الأسوب والطريقة والمنهج.

المطلب الثاني: العلاقة بين التقوى وإعداد القوة

وبعد أن عرفنا المراد بإعداد القوة المشار إليه في قوله تعالى: {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة}، والمراد بالتقوى المشار إليه في قوله تعالى: {فاتقوا الله ما استطعتم}.

وعرفنا المراد بالاستطاعة في الموضعين، نذكر في هذه الفقرة وجه الربط بينهما، وفائدة تلازمهما، وخطر الفصل بينهما، إذ هو المقصود الأهم في كتابة هذا المبحث، فنقول مستمدين من الله تعالى الفتح والتوفيق:

نرى أن العلاقة بين ما في الآيتين الكريمتين علاقة عموم وخصوص، حيث إن كل من بذل المستطاع في تحقيق تقوى الله تعالى، لا بد أن يكون قد بذل المستطاع في إعداد القوة ولا عكس، ذلك لأن إعداد القوة أمر من الله تعالى ـ كما هو بين ـ، ومن أركان التقوى إمتثال أوامر الله تعالى ـ كما تقدم في تعريفها ـ، فمن قصّر في هذا مع استطاعته لم يكن ممن تحقق بالتقوى على الوجه المطلوب، والله تعالى يعذر غير المستطيع.

وأما إعداد القوة: فليس من لوازمه ذلك، إذ قد يبذل المرء جهده في إعداد القوة لمواجهة عدوه ولم يكن تقيا لتفريطه فيما سوى هذا من أوامر الله تعالى، بل قد يأثم في إعداد تلك القوة لفساد نيته.

إن غير التقي إذا ملك القوة قد يتصرف فيها وفق هواه وشهوته، وربما أضر بشعبه وأمته، وقد يتهور فيجلب على وطنه الويلات ويوقع أهله في المهالك، ويعرضهم للنكبات، وإن شيئا من هذا لم يكن ليقع لو كانت هناك تقوى، إذ إنها تحتم على صاحبها أن يستعمل القوة في وجهها الصحيح وفق المعايير الشرعية، لأنها تعمل على تزكية النفس فتجعلها منضبطة متزنة، تسير على هدى من الله تعالى وتوفيق من غير إفراط ولا تفريط [70].

من هنا نرى أن الآيتين الكريمتين تشكلان مقصدا مهما من مقاصد القرآن، يجعل الشخصية المسلمة ذات صبغة خاصة تميزها عن غيرها، فهي تقية قوية، وقوية تقية، فالتقوى تمنع غالبا من الخمول والكسل، و الجبن والنقاعس، وتدعو إلى بذل الجهد والمنافسة لبلوغ ما تستطيع في كبح جماح أعداء الدين وإرهابهم، رحمة لا نقمة، وطلبا للهداية والسلام، لا طمعا في الحرب والهيمنة والاستبداد.

وإذا ما تم هذا في حياة الأمة (التقوى وإعداد القوة) فإنها تكون بذلك قد أدت ما عليها مما كلفها الله تعالى به، وهي بعد ذلك ليست مسؤولة عن النتائج، لأن من لوازم التقوى التسليم لما يقدره الله تعالى، فإن كان النصر وتم التمكين فتشكر الله تعالى وتطيعه في ذلك، عملا بقوله تعالى: {الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور}[71]، وترسي قواعد العدل بين عباد الله على أرض الله وفق شرع الله، متأسية برسول الله صلى الله عليه وسلم حين مكنه الله تعالى في مكة المكرمة، حيث أعلن سماحة الإسلام، ودخل مكة في غاية التواضع لله تعالى، وعفا عمن ظلمه صلى الله عليه وسلم، ولكنه لم يتساهل مع من يستحق العقاب من المتعنتين

وهم بضعة عشر رجلا كانوا ممن عظمت جرائمهم في حق الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وحق الإسلام، فأمر صلى الله عليه وسلم بقتلهم وإن وجدوا متعلقين بأستار الكعبة [72]، كما جاء في سيرته العطرة صلى الله عليه وسلم [73].

وهكذا علم صلى الله عليه وسلم أتباعه ـــ وهو سيد المتقين ـــ، كيف تعمل التقوى عملها في تحقيق العدل والرحمة من غير ذلة ولا تفريط بالحقوق.

وإن كانت الأخرى ـــ بأن لم يتم النصر ـــ فإن التقوى تدعو حينئذ إلى الصبر والتسليم، لأنها علمت المسلم أن ذلك لا يكون إلا لحكمة يعلمها الله تعالى، أو مصلحة خفيت على الناس، أو خلل لم ينتبهوا له، فما يسعهم بعد أن أخذوا بالأسباب على ما يريد الله تعالى إلا أن يقولوا: {إنا لله وإنا إليه راجعون}[74]، متأملين قوله تعالى: {قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون}[75]، مصممين على المضي في نصر الله وإعزاز دينه، قائلين ما علمهم ربهم أن يقولوا: {حسبنا الله ونعم الوكيل}[76].

فيكون المسلم في كلتا الحالتين، على هدى من الله، لا يخرج عن الخير الذي أخبر عنه صلى الله عليه وسلم: (عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراءُ شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراءُ صبر فكان خيرا له) [77].

المطلب الثالث: الاستطاعة بين ماضي الأمة وحاضرها

لا يخفى على قارئ تاريخ المسلمين منذ أن جاء الإسلام إلى زماننا الحاضر، أن ثمة تفاوتا في تحقيق الاستطاعة في الأمرين بين هذه القرون التي بلغت أربعة عشر قرنا وربع القرن من الزمان، فقد كانت العصور الأولى الزاهرة مثالا ناصعا لتحقيق الاستطاعة على الوجه الذي أراده الله تعالى، فقد ربى النبي صلى الله عليه وسلم صحابته الكرام ـــ رضي الله تعالى عنهم ـــ على ذلك، حيث فسر لهم الاستطاعة بقوله وعمله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ، وكان يردهم إليها كلما حصل منهم في ذلك إفراط أو تفريط.

فنقرأ في سيرته صلى الله عليه وسلم أنه قال لعبد الله بن عمر ـــ رضي الله تعالى عنهما ـــ: نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل [78]، وقال للنفر الذين أتوا بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالوها!! فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما انا فأنا

أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني [79].

ونهى عن الوصال في الصوم فقال صلى الله عليه وسلم: إياكم والوصال، قالوا: فإنك تواصل يا رسول الله، قال: إنكم لستم في ذلك مثلي، أنا أبيت يطعمني ربي ويسقيني، فاكلفوا من الأعمال ما تطيقون [80].

وقد علمهم في البيعة أن يراعوا ذلك، ففي الصحيح عن جرير بن عبد الله ـ رضي الله تعالى عنهما ـ قال: بايعت النبيّ صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة، فلقنني: (فيما استطعت)، والنصح لكل مسلم [81]، وعن ابن عمر ـ رضي الله تعالى عنهما ـ قال: كنا إذا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة يقول لنا: فيما استطعتم [82].

ونقرأ ـ أيضا ـ: أنه لما قال المشركون: يقدم عليكم وفد وهنتهم حمّى يثرب، وتطلعوا من رؤوس الجبال ليروا الذين أضعفتهم الحمّى والغربة، أنه صلى الله عليه وسلم لما علم بهذه المقالة اضطبع بردائه وصار يهرول [83]، وأمر المسلمين أن يضطبعوا ويهرولوا، وقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه ـ رضي الله تعالى عنهم ـ: رحم الله امرءا أراهم اليوم من نفسه قوة [84]، ودخل مكة في الفتح دخول المتواضعين لا دخول الفاتحين المتغطرسين، والأمثلة على هذا كثيرة، وكلها دالة على تحقيق منهج الوسطية التي جاء بها الإسلام، سواء في ذلك أمور الدنيا والآخرة.

وقد سار الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ وفق تلك التوجيهات، وتحلوا بتلك الآداب، وعلى ما تربوا ربوا تلاميذهم، فسرى الخير في أفراد الأمة عبر القرون، مع تفاوت في ذلك من حيث التقيد والالتزام بتلك القواعد والتوجيهات.

ومما يلاحظ هنا: أن الله تعالى خص أفرادا خمسة في هذه الأمة ـ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ تمثل فيهم الكمال الإنساني، حيث كان كل فرد منهم في عهده أمة يقتدى به في كل خلق ديني أو دنيوي، وهم:

أبو بكر الصديق، وعمر الفاروق، وعثمان ذو النورين، وعلي الكرار ـ رضي الله تعالى عنهم ـ، ويلحق بهم المجدد الأول عمر بن عبد العزيز ـ رضي

الله تعالى عنه ـــ، فإنه كان القائم بالأمر على رأس المائة الأولى ـــ كما يقول ابن حجر ـــ باتصافه بجميع صفات الخير وتقدمه فيها [85].

فنجد كل واحد من هؤلاء في زمانه هو: القائد العسكري، والحاكم الأعلى في الدولة الإسلامية، والمرشد المربي، والفقيه المفتي، والتقي العابد الزاهد، ونحو ذلك من صفات الكمال البشري، فكان قدوة خلقا وهديا، وأسوة حسنة في كل كمال، مما لا نجده في غير هؤلاء من أفراد الأمة، حيث تفرقت فيهم الكمالات. فقد نجد القائد ولا نجد فيه الفقيه، وقد نجد الحاكم ولا نجد فيه المرشد والمربي، وبالعكس. فلم يعد المجدد الذي أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها) [86]. جامعا لهذه الصفات، فقد يكون متصفا ببعض تلك الصفات كأن يكون فقيها أو محدثا أو قارئا أو واعظا، قال ابن حجر ـــ بعد ذكر عمر بن عبد العزيز كما تقدم ـــ: ومن ثم أطلق أحمد أنهم كانوا يحملون الحديث عليه، أما من جاء بعده فالشافعي وإن كان متصفا بالصفات الجميلة إلا أنه لم يكن القائم بأمر الجهاد والحكم بالعدل، فعلى هذا كل من كان متصفا بشيء من ذلك عند رأس المائة هو المراد سواء تعدد أم لا [87]. مما اقتضى الأمة أن تعود إلى سيرة أسلافها، وأن تتعاون على البر والتقوى، وأن يكون التواصل قائما بين الفقيه والقائم بالأمر والزاهد والمرشد والمربي وغيرهم ممن اختصه الله تعالى بشيء من تلك الصفات المحتاج إلى تجديدها.

وقد كان هذا حاصلا في العصور الزاهرة، حيث كان الحاكم يرجع إلى الفقيه ويأخذ عنه الأحكام التي يسير في ضوئها شؤون الدولة الإسلامية، وهكذا، بمعنى أنه لا استبداد بالرأي ولا ما يسمى في عصرنا بـــ (الدكتاتورية)، بل هناك شورى وتناصح وتعاون على البر والتقوى، حتى دبّ في الأمة داء الأمم من قبلها، فحصل الانفصال، وإعجاب كل ذي رأي برأيه لا سيما الحاكم، الذي ربما جرّ على أمته ويلات الحروب والدمار بسبب تصرفه الفردي وعدم الرجوع إلى هدي الشرع فيما يأخذ أو يذر، وعدم استشارته أهل الفقه والاختصاص.

ونريد هنا أن ننظر في حال أمتنا اليوم من ناحيتين:

الأولى: الاستطاعة.

الثانية: التكاتف بين الفقيه والحاكم.

فهل بذلت الأمة بمجموعها اليوم الاستطاعة في هذا الخصوص؟

إن نظرة منا إلى ما نشاهده ونطالعه، وما نسمعه يعطي جوابا بيّنا، لا

يلتبس على ذي عينين وليس كلامنا هنا مع أفراد معينين أو مجموعات معينة، بل النظرة إلى مجموع الأمة كما ذكرنا فنستطيع أن نقول: إن الأمة لم تبذل جهدها في تحقيق التقوى وإعداد القوة في ضوء الاستطاعة كما أمرها الله تعالى بذلك.

وقد أحسن العلامة القاسمي ـ رحمه الله تعالى ـ إذ نبه إلى هذا فقال:

(.. ولما عمل الأمراء بمقتضى هذه الآية ـ {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة} ـ أيام حضارة الإسلام، كان الإسلام عزيزا عظيما، أبيّ الضيم، قويّ القناة، جليل الجاه، وفير السنا، إذ نشر لواء سلطته على متنبسط الأرض، فقبض على ناصية الأقطار والأمصار، وخضد شوكة المستبدين الكافرين، وزحزح سجوف الظلم والاستعباد، وعاش بنوه أحقابا متتالية، وهم سادة الأمم، وقادة الشعوب... وأما اليوم فقد ترك المسلمون العمل بهذه الآية الكريمة، ومالوا إلى النعيم والترف، فأهملوا فرضا من فروض الكفاية، فأصبحت الأمة آثمة بترك هذا الفرض، ولذا تعاني اليوم من غصته ما تعاني)... إلخ [88].

وأما الناحية الثانية: فالأمر لا يختلف عن الناحية الأولى، فأين رجوع الحاكم إلى أخذ رأي الشرع في تصرفاته؟ وأين نصيحة أهل العلم للحاكم؟ وهل بذلنا الوسع في ذلك؟.

إننا بحاجة إلى التأمل والتبصر، والاعتراف بالتقصير، وتصحيح الخطأ، حتى لا نخطئ فهم القرآن.

وعلى الأمة أن تنهض في المطالبة بالعودة إلى تحقيق مبدأ الشورى والتكاتف والتعاون بين الراعي والرعية، والصدق في النصح وإرادة الخير، ونبذ التسلط والتعالي، والانتصار على النفس بعدم الانفراد بالرأي وفرضه بالقوة، ورحم الله حافظ إبراهيم إذ يقول:

رأي الجماعة لا تشقى البلاد به رغم الخلاف ورأي الفرد يشقيها [89]

ولا نريد هنا التكاتف الصوري والشورى الصورية ـ كما هو الحال عند بعض الناس ـ، لأن ضرر هذا بيّن، أورث الأمة ضررا فادحا، وأدى إلى تمزيق وحدتها، بأن يعرض الرأي للتشاور ثم يؤول الأمر قطعا إلى ما يريد صاحب الرأي لأسباب متعددة!!!!

خطر الفصل بين التقوى وإعداد القوة:

من عظيم فضل الله تعالى على هذه الأمة أن أتم عليها نعمته وأكمل دينه، وامتنّ عليها سبحانه وتعالى بذلك فقال: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم

نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا}[90]. فالإسلام دين الكمال، ولا يظهر جماله إلا إذا طبق بكماله.

ونحن هنا أمام دعامتين في غاية الأهمية. وهما:

ـــ بذل الجهد في تقوى الله تعالى.

ـــ بذل الجهد في إعداد القوة كما أمر الله تعالى.

وكمال الإسلام ـــ هنا ـــ إنما يظهر في تحقيق الدعامتين معا، وأن التفريط بأحدهما يضرّ بالأخرى، والمقتصر على أحدهما من المكلفين لا يعتبر صادق الاتباع متى ما كان قادرا على الجمع بينهما، لإخلاله بأمر من أوامر الله تعالى، وذلك أحد معوقات النصر، حيث أخلّ بأحد شروطه التي قال الله تعالى الله فيها: {يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم} [91]،إذ طاعة الله تعالى شرط مهم من تلك الشروط.

ومما يؤسف عليه أن ترى الأمة اليوم بمجموعها قد فصلت بين الدعامتين، على عكس ما كان عليه أسلافهم، فكان من نتائج ذلك:

ـــ أن من أغفل جانب إعداد القوة، واهتمّ بجانب من التقوى [92] ـــ كالعبادات ونحوها ـــ، آل أمره إلى واحد من اثنين: إما أن يمالئ الأعداء ويسايرهم، كما هو واقع بعض بلاد المسلمين، وإما أن يُضرب فلا يستطيع الصمود [93] أمام عدوه كما هو واقع بعض آخر!! وكيف يصمد وهو لا يملك من السلاح ما يملك عدوه؟.

وأما من أغفل جانب التقوى، واجتهد في إعداد القوة، فقد أساء استخدامها، وذلك من ناحيتين:

الأولى: الإساءة إلى إخوانه وجيرانه من المسلمين، وإرهابهم بدل أن يرهب أعداءهم.

والثانية: التصرف الخاطئ في استعمال تلك القوة، بما كان سببا في إلحاق الأذى بالأمة والإضرار بمصالحها.

والأمثلة متعددة، لا تخفى على من يعيش في هذا الزمن المليئ بالمآسي المريرة [94] التي ألمت بالمسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولعل خير مثال قريب، هو ما حصل لبغداد [95] في تلك الليلة السوداء، حيث كان ضعف الإيمان والتقوى أو انعدامهما، عاملا مهما في ذلك السقوط المريع، يقول صاحب كتاب الحرب الأمريكية على العراق: (فقد ظهر أن الأطماع

وتقلبات الأنفس والأمزجة التي لا نهاية ولا حدود لها، وحب الدنيا والتعلق ببريق الذهب ورائحة الأموال تغري العديد، خاصة ذوي النفوس الضعيفة ورفاق المصلحة، تجلى هذا في حفنة من الضباط الكبار، الذين لا ولاء ثابت لهم، لأنهم ليسوا من المؤمنين بالله، ولا جذر لهم عميق يشد سيقانهم للوطن، خانوا بلدهم وأنفسهم... وسلموا البلاد في ليلة حالكة مقابل حفنة من دولارات ملوثة ووعد بالسلامة والإقامة في أمريكا)، ثم يقول: (فلم يستثر صدام حسين إلى الخلف ليرى الخنجر المرفوع خلف ظهره حتى تم إغماده إلى النصل في تلك الليلة السوداء، مؤكدا له بعد فوات الأوان أن الثقة المطلقة بغير الله، ثم المؤمنين الصادقين بعيدهم لله، هي مقتل مرجح تزداد كلما قل الإيمان وضعفت النفوس)[96].

وهكذا نرى أن غياب التقوى في مسيرة هؤلاء، غيرت مجرى الأمور إلى غير صالح المسلمين، ولو أن تكاتفا تم بين الفريقين، وربطا بين الدعامتين، لكان حال المسلمين اليوم شبيها بحال أسلافهم يوم كانوا سادة الدنيا وقادة العالم.

إن واقع المسلمين المعاصر يقتضي دراسة متأنية، قائمة على التبصر والتحليل، للخروج بالدروس النافعة، ومن أبرزها: تشخيص الداء العضال بصورة بينة، في ضوء الأخطاء والتجارب، مع المقارنة بين ماضي الأمة وحاضرها، ثم وصف الدواء الناجع بصورة دقيقة، والإرشاد إلى كيفية استعماله بنصح صادق، وهمة قوية وعزم أكيد، يقوم على نية صافية، وإخلاص صحيح.

وإن هذه الأمة لعلى خير كثير، وهي عائدة إلى المنابع الصافية بلا ريب، ومتمسكة بهديها، حيث إن الكل بدأ يدرك أن لا نجاة مما هي فيه إلا بذلك[97]، وصدق من قال: والله لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وإن ذلك لكائن عن قريب بإذن الله تعالى، وصدق الله العظيم إذ يقول: {ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون}[98].

الخاتمة

نسأل الله تعالى حسنها

نذكر فيها أهم ما توصل إليه البحث من نتائج، على شكل نقاط محددة على النحو الآتي:

ـــ إن القرآن الكريم كان نعمة إلهية كبرى، ومنحة ربانية عظمى، وإن الله تعالى تكفل لمتبعيه بسعادتي الدنيا والآخرة.

ـــ إن تعامل مسلمي اليوم ـــ بمجموعهم ـــ مع القرآن، بالنسبة إلى تلاوته وحفظه لا بأس به، وقد أخذوا من ذلك بحظ وافر.

ـــ إن تعاملهم مع القرآن، بالنسبة إلى فهمه والعمل به ضعيف، مما يتطلب من ذوي العلم والدعوة والإصلاح مزيدا من بذل الجهد في النصح والتوعية والتذكير.

ـــ إن الخلف قد انحرفوا عن منهج السلف ـــ في هذا ـــ فآل أمرهم إلى ما آل إليه، وفق سنة الله التي يقول فيها: {إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم}.

ـــ إن بذل الجهد في التقوى، وبذل الجهد في إعداد القوة لمواجهة الأعداء، ينبغي أن يكونا متلازمين في حياة أمة الإسلام.

ـــ وإن التفريق بينهما قد أضر بمجموع الأمة، فقادها إلى التفرق والتشذرم الذي يعاني منه الكبار والصغار.

ـــ إن المسؤولية في تحقيق النهوض بالأمة ـــ على ما تقدم ـــ تقع في الدرجة الأولى على الأمراء والعلماء، أما الأمراء: فلما آتاهم الله من ملك، وما منحهم من إمكانات وسلطات، وأما العلماء: فلما لهم من مكانة ودراية، ولما عليهم من واجب النصح والبيان الذي أخذه الله تعالى عليهم.

ـــ لو أن التطور الهائل الذي تشهده الدنيا هذه الأيام كان بيد المسلمين الذين يحسنون التعامل مع القرآن، لكان وضع الدنيا اليوم على غير ما هي عليه الآن، فحقا وصدقا: كم خسر العالم بانحطاط المسلمين!!

ـــ إن الصحوة الإسلامية التي تنتشر في بقاع المسلمين اليوم، تبشر بمستقبل مشرق لهذه الأمة، غير أنها تحتاج إلى توجيه وترشيد من ذوي العلم والمعرفة،كي لا تنحرف عن مسارها الصحيح.

الهوامش والتعليقات:

---

(1) أخرجه الترمذي برقم 2948 عن نصر بن علي وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه، وإسناده ليس بالقوي، ثم أخرجه عن محمد بن بشار بنحوه وقال: وهذا عندي أصح من حديث نصر بن علي ـــ كتاب القراءات ـــ باب: (11) 5/198، والدارمي برقم 3476 ـــ باب: ختم القرآن 2/560، والطبراني بنحوه في الكبير برقم 12783ـــ 12/131 وسكت عليه، وقال الذهبي: صالح ـــ وهو المري ـــ متروك قال: وله شاهد ـــ كتاب فضائل القرآن 1/568-569، وابن المبارك في الزهد برقم 80 ص 276، وأبو نعيم في الحلية 2/260.

(2) أخرج البخاري في مواضع متعددة، أنظر رقم 3047في كتاب الجهاد ـ باب: فكاك الأسير 205/6.

(3) يثور ـ بتشديد الواو ـ: أي لينفر عنه، يفكر في معانيه وتفسيره وقراءته. النهاية 229/1 مادة: ثور.

(4) أخرجه الطبراني في الكبير برقم 8666 وفي رواية: خير بدل علم في الموضعين، انظر الأرقام: 8664-8666، 135/9-136، قال في مجمع الزوائد: رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح 165/7، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان برقم 1960ـ فصل في تعظيم القرآن 332/2، وانظر إحياء علوم الدين 283/1.

(5) سورة المائدة، آية: 118، والحديث أخرجه أحمد 149/5، والنسائي في كتاب الافتتاح ـ ترديد الآية 2/ 177، وابن ماجه برقم 1350 في كتاب: إقامة الصلاة، باب: ما جاء في القراءة في صلاة الليل، قال في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات 429/1، والحاكم في كتاب الصلاة وقال: هذا حديث صحيح، ووافقه الذهبي 241/1.

(6) سورة الجاثية، آية: 21.

(7) سورة يس، آية: 59.

(8) سورة الصافات، آية: 24.

(9) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب: الرقة والبكاء برقم 94 ص 101، وفي البداية والنهاية لابن كثير أنه مكث ليلة كاملة يرددها 228/6-229 ط دار الفكر.

(10) سورة القمر، آية: 46.

(11) انظر سير أعلام النبلاء 401/6، النجوم الزاهرة 13/2، مناقب أبي حنيفة 252/2، عقود الجمان ص 224.

(12) انظر الإتقان 106/1.

(13) انظر إحياء علوم الدين ـ الباب الثالث: في أعمال الباطن في التلاوة 282/1.

(14) أخرجه أحمد 192/2، وقال أحمد شاكر في النسخة المحققة 55/11: إسناده صحيح، وأبو داود برقم 1464في كتاب الصلاة باب: استحباب الترتيل في القراءة 73/2، والترمذي برقم 2914في كتاب فضائل القرآن وقال: هذا حديث حسن صحيح 163/5، والحاكم في فضائل القرآن، وصححه الذهبي 553/1.

(15) انظر الترغيب والترهيب للمنذري 350/2-351، والتفسير الكبير 69/1-70.

(16) هو الصحابي الجليل صدي ـ بالتصغير ـ ابن عجلان الباهلي، سكن الشام ومات بها سنة ست وثمانين، أخرج له الجماعة ـ رضي الله تعالى عنه ـ. انظر التقريب 366/1، التهذيب 420/4-421، الإصابة 268/2-269.

(17) أخرجه ابن أبي داود بإسناد صحيح كما قال ابن حجر في الفتح 79/9.

(18) أخرجه أحمد من حديث ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ 223/1، والدارمي في فضائل القرآن 521/2، والترمذي برقم 2913ـ واللفظ له ـ في ثواب القرآن وقال: هذا حديث حسن صحيح 177/5.

(19) ففي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبي بن كعب ـ رضي الله تعالى عنه ـ: يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: {الله لا إله إلا هو الحي القيوم}، قال: فضرب في صدري وقال: ليهنك العلم أبا المنذر. أخرجه مسلم برقم 810 في كتاب صلاة المسافرين ـ باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي 556/1.

(20) فعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال.وفي رواية: من آخر الكهف. أخرجه مسلم برقم 809، 1/555-556.

(21) فعن أبي أمامة الباهلي ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه، اقرءوا الزهراوين: البقرة وآل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما، اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة. قال معاوية بن سلام بلغني أن البطلة: السحرة. أخرجه مسلم برقم 804، 1/553.

(22) نقل ابن كثير في تفسيره عن بعض العلماء في خصائص هذه السورة أنها لا تقرأ عند أمر عسير إلا يسره الله تعالى، وذكر حديث أبي هريرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: من قرأ يس في ليلة أصبح مغفورا له، ومن قرأ حم التي يذكر فيها الدخان أصبح مغفورا له. وقال ابن كثير: إسناده جيد 3/570.

(23) فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ بهما في صلاة الصبح. أخرجه مسلم برقم 879و880 من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما 2/599.

(24) فعن أبي هريرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له، وهي سورة: {تبارك الذي بيده الملك}. أخرجه أحمد 2/299، والترمذي ـ واللفظ له ـ برقم 2891 وقال: هذا حديث حسن 5/164، والحاكم وصححه، وأقره الذهبي 2/497.

(25) فهي من أوراد النوم، كما صح ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما: {قل هو الله أحد} و {قل أعوذ برب الفلق} و {قل أعوذ برب الناس}، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات. أخرجه البخاري برقم 5017 في كتاب فضائل القرآن 9/62.

(26) سورة ص، آية: 29.

(27) سورة الأنعام، آية: 38. وقد اختلف العلماء في المراد بالكتاب في هذه الآية، ولعل الراجح ما ذهب إليه الرازي وغيره من أن المراد به القرآن، قال الرازي: لأن الألف واللام إذا دخلا على الاسم المفرد انصرف إلى المعهود السابق، والمعهود السابق عند المسلمين هو القرآن، فوجب أن يكون المراد من الكتاب في هذه الآية القرآن، ونسبه المزرودي إلى الجمهور. انظر التفسير الكبير 12/225-228، النكت والعيون 2/112، وانظر تتمة المسألة في كتابنا: أبرز أسس التعامل مع القرآن الكريم ص 66-67 هامش 2.

(28) سورة النحل، آية: 89 وتمامها: {وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين}.

(29) انظر إحياء علوم الدين 1/289، وأثر علي ـ رضي الله تعالى عنه ـ تقدم تخريجه.

(30) سورة فصلت، آية: 53.

(31) انظر الجامع لأحكام القرآن 1/21، والوجيز في فضائل الكتاب العزيز ص 79.

(32) سورة الأنعام، آية: 155.

(33) سورة الجمعة، آية: 5.

(34) متفق عليه، أخرجه البخاري ـ واللفظ له ـ برقم 5059 في كتاب فضائل القرآن باب: إثم من راءى بقراءة القرآن 100/9، ومسلم برقم 797 في كتاب صلاة المسافرين باب: فضيلة حافظ القرآن 549/1.

(35) أخرجه ابن المبارك في الزهد ص 274.

(36) سورة النحل، اية: 125.

(37) سورة الأحزاب، اية: 59.

(38) سورة المائدة، اية: 49.

(39) وبانحطاطهم وتأخرهم خسر العالم الكثير والكثير، اقرأ في هذا: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للشيخ الندوي ـ رحمه الله تعالى ـ

(40) سورة الأنفال، اية: 60.

(41) سورة التغابن، اية: 16.

(42) انظر مقاييس اللغة 431/3، المحيط في اللغة 120/1، بصائر ذوي التمييز 3 /520.

(43) انظر التعريفات ص 35، لسان العرب 242/8، النهاية 142/3.

(44) هو الإمام العلامة المفسر اللغوي، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل، الملقب بالراغب الأصفهاني ـ أو الأصبهاني ـ من أهل أصبهان، سكن بغداد واشتهر حتى كان يقرن بالإمام الغزالي ـ رحمهما الله تعالى ـ توفي 502 هـ وقيل: غير ذلك. انظر الأعلام 255/2.

(45) انظر المفردات ص 530، بصائر ذوي التمييز 521/3 مادة: طوع.

(46) سورة البقرة، اية: 286.

(47) انظر القاموس المحيط 552/4، وتاج العروس 306/10، ولسان العرب 207/15، والمعجم الوسيط 2 /768 مادة: قوي.

(48) انظر التعريفات ص 231.

(49) انظر التحرير والتنوير 99/9.

(50) السابق 55/10.

(51) أخرجه مسلم من حديث عقبة بن عامر الجهني ـ رضي الله تعالى عنه ـ برقم 1917 في كتاب الإمارة باب: فضل الرمي والحث عليه 1522/3، وقد استوفينا تخريجه في تحقيق تفسير سورتي الأنفال والتوبة لابن أبي حاتم الرازي رقم 567 (477/1-479).

(52) أخرجه النسائي في فرض الوقوف بعرفة من حديث عبد الرحمن بن يعمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ 256/5، والترمذي برقم 889 في كتاب الحج باب: 57 وقال: والعمل على حديث عبد الرحمن بن يعمر عند أهل العلم من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وغيرهم 237/3-238، وأبو داود في المناسك باطول منه برقم 1949 باب: من لم يدرك عرفة 196/2، والحاكم في كتاب التفسير وقال: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه وسكت عنه الذهبي 278/2.

(53) أخرجه احمد من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله تعالى عنه ـ 376/1، وفي النسخة المحققة برقم 3568 وقال الأستاذ أحمد شاكر ـ رحمه الله تعالى ـ: إسناده صحيح 194/5، وأخرجه الحاكم وصححه في كتاب التوبة والإنابة ـ مختصرا ومطولا ـ ووافقه الذهبي 243/4.

(54) انظر جامع البيان 37/14، أقول: العجيب من الإمام الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ أنه اورد الخبر المذكور من عدة طرق كلها ضعيفة، ثم قال بعد كلامه المتقدم: "هذا من وهاء سند الخبر بذلك عن رسول

الله صلى الله عليه وسلم" ا. هـــ وأنت تعلم أن الحديث صحيح، أخرجه مسلم وغيره بإسناد صحيح ـ كما تقدم في تخريجه ـ.

(55) سورة المدثر، آية: 56 وتمامها: {وأهل المغفرة}.

(56) انظر القاموس 582/4.

(57) انظر النهاية 217/5 مادة وقا قال: وقد تكرر ذكر الاتقاء في الحديث، ومنه حديث علي ـ رضي الله تعالى عنه ـ: كنا إذا احمرّ البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم: أي جعلناه وقاية لنا من العدوّ.

(58) انظر التعريفات ص 90.

(59) انظر المفردات ص 881.

(60) انظر في هذا: التعريفات ص 90، والمفردات 881.

(61) انظر نظم الدرر 133/20.

(62) انظر ما كتبناه عن التقوى في: دعائم السلوك الأمثل ـ دعامة: اكتساب التقوى.

(63) أخرجه الترمذي من حديث عطية السعدي ـ رضي الله تعالى عنه ـ برقم 2451 وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه 634/4، وابن ماجه برقم 4215 في كتاب الزهد ـ باب الورع والتقوى 1409/2، والحاكم في كتاب الرقاق وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي 4/319، والبيهقي في شعب الإيمان برقم 5745 ـ الفصل الثالث في طيب المطعم والملبس 52/5.

(64) انظر جامع البيان 127/28 ـ طبعة دار الفكر ـ، والكشاف 116/4، ومحاسن التأويل 15/7، والتفسير المنير 255/28.

(65) انظر تفسير ابن كثير 589/4.

(66) سورة الأعراف، آية: 201.

(67) انظر التحرير والتنوير 287/28-288.

(68) سورة النحل، آية: 125.

(69) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن لغيره برقم 98(110/1)، وابن جرير برقم 13120و12124 (11/129)، وهو في تفسير مجاهد ص213، وابن كثير 203/2،وأخرجه ابن أبي حاتم بمعناه وبأطول منه عن الربيع بن أنس بسند حسن برقم 100(113/1).

(70) انظر فقرة الاهتمام بالنفس البشرية في بحثنا: النصر في القرآن ص 29-32.

(71) سورة الحج، آية: 41.

(72) فقد أخرج البخاري برقم 4286 عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة يوم الفتح وعلى رأسه المغفر، فلما نزعه جاء رجل فقال: ابن خطل متعلق بأستار الكعبة، فقال: اقتله، قال مالك: ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فيما نرى ـ والله أعلم ـ يومئذ محرما. كتاب المغازي باب: أين ركز النبي صلى الله عليه وسلم الراية يوم الفتح 573/9، وأخرجه في كتاب جزاء الصيد باب: دخول الحرم ومكة بغير إحرام رقم 1846 وذكر الحافظ ابن حجر سبب قتله، ونقل عن ابن عبد البر: أنه قتله قودا من دم المسلم الذي غدر به وقتله ثم ارتد وذكر أسماء الذين لم يؤمنهم النبي صلى الله عليه وسلم لا في حل ولا في حرم، والنفر الذين أهدر دمهم النبي صلى الله عليه وسلم قبل الفتح، وذكر من أسلم منهم كعكرمة بن أبي جهل وغيره. انظر فتح الباري 479/5-500.

(74) انظر السيرة النبوية لشيخنا الأستاذ الدكتور أبي شهبة ـ رحمه الله تعالى ـ 451/2 وقال: ومن هؤلاء من قتل، ومنهم من جاء مسلما تائبا فعفا عنه الرسول صلى الله عليه وسلم وحسن إسلامه، وانظر السيرة النبوية للدكتور علي محمد محمد الصلابي 1183/2.

(75) سورة البقرة، اية: 156 وهي بتمامها مع التي بعدها: {الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون}.

(76) سورة التوبة، اية: 51.

(77) سورة آل عمران، اية: 173 وتمام الاية: {الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل}.

(78) أخرجه مسلم برقم 2999 من حديث صهيب بن سنان ـ رضي الله تعالى عنه ـ.

(79) أخرجه مسلم برقم 2479 في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب: من فضائل عبد الله بن عمر ـ رضي الله تعالى عنهما ـ 1927/4-1928 وذلك في تفسير رؤيا راها. قال سالم: فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل الا قليلا.

(80) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم 5063 في كتاب النكاح ـ باب: الترغيب في النكاح 340/11، ومسلم برقم 1401 في الكتاب والباب السابقين،وفيه: قال بعضهم: لا اكل اللحم 1020/2.

(81) أخرجه مسلم برقم 1102 بالفاظ مختلفة في كتاب الصوم باب: النهي عن الوصال في الصوم 774/2-775.

(82) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم 7204 في كتاب الأحكام باب: كيف يبايع الامام 586/16، ومسلم برقم 56 في كتاب الإيمان باب: بيان أن الدين النصيحة.

(83) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم 7202 في الكتاب والباب السابقين، ومسلم برقم 1867 في كتاب الإمارة باب: البيعة على السمع والطاعة فيما استطاع.

(84) الاضطباع: مأخوذ من الضبع وهو العضد، وهو أن يأخذ الإزار أو البرد فيجعل وسطه تحت إبطه الأيمن، ويلقي طرفيه على كتفه الأيسر من جهتي صدره وظهره، وسمّي بذلك لإبداء الضبعين، ويقال للابط الضبع للمجاورة. انظر النهاية 73/3، لسان العرب 216/8 مادة: ضبع.

والمراد بالهرولة: الرمل ـ بالتحريك ـ، وهو الإسراع في المشي مع هزّ المنكبين، وهو مسنون في بعض الأطواف دون بعض. انظر النهاية 265/2/ لسان العرب 295/11 مادة: رمل.

(85) متفق عليه بمعناه، أخرجه البخاري برقم 4256، ومسلم برقم 1266، وأحمد 229/1 بنحوه، وذكره ابن هشام بلفظه في سيرته 371/2 في عمرة القضاء، وابن كثير في البداية والنهاية 375/6، وانظر السيرة النبوية للدكتور أبي شهبة ص 377، قال: وهي مشية تنم عن القوة والفتوة، وهذا أصل السنة، ثم أبقاها الشارع لما فيها من التذكير بنعمة الله على المسلمين، حيث اعزهم بعد ذلة، وقواهم بعد ضعف، ونصرهم ومكن لهم في الأرض بعد ضيعة إ.هـ هامش 2.

(86) انظر فتح الباري 127/17.

(87) أخرجه أبو داود برقم 4291 من حديث أبي هريرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ في كتاب: الملاحم باب: ما يذكر في قرن المائة 35/5، والطبراني في الأوسط برقم 6523(272/7) بسند صحيح ورجاله كلهم ثقات كما يقول ملا علي القاري في المرقاة شرح المشكاة 302/1، والخطيب البغدادي في ترجمة الإمام الشافعي ـ رضي الله تعالى عنه ـ 61/2-62، والحاكم في كتاب الفتن والملاحم وسكت عنه وتبعه

الذهبي 522/4، ولكن قال المناوي في فيض القدير 281/2-282 رقم 1845، وملا علي القاري في شرح المشكاة 302/1، والعجلوني في كشف الخفا 243/1: إن الحاكم صححه، ونقل المناوي ـ أيضا ـ عن الزين العراقي وغيره أنه قال: سنده صحيح،وذكره ولي الدين التبريزي في مشكاة المصابيح برقم 247 في كتاب العلم 82/1 وقال: رواه أبو داود، و ابن كثير في مواضع من كتابه البداية والنهاية فقد ذكره في الأخبار عن أمور وقعت في دولة بني العباس 289/6، وفي ترجمة الإمام الشافعي 253/10، وفي ترجمة عمر بن عبد العزيز 232/6، والسيوطي في الدرر المنتثرة ص27، وفي الدر المنثور 321/1، و المتقي في كنز العمال برقم 34623 في المجدد على رأس كل سنة 193/2، و الألباني في سلسلته الصحيحة برقم 599 وقال: السند صحيح ورجاله ثقات رجال مسلم 151/2.

([87]) انظر فتح الباري 127/17.

([88]) انظر محاسن التأويل 57/4-58.

([89]) من قصيدته الطويلة في سيرة عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ، في ديوانه ص 91 فقرة (عمر والشورى)، ومطلع هذه الفقرة:

يا رافعاً راية الشورى وحارسها • • • جزاك ربك خيرا عن محييها

لم ينهك النزع عن تأييد دولتها • • • وللمنيـــــة الام تعانيهـــا

وقبل هذا البيت:

وما استبد برأي في حكومتـــــه • • • إن الحكومة تغري مستبديها

([90]) سورة المائدة، آية: 3.

([91]) سورة محمد صلى الله عليه وسلم، آية: 7.

([92]) إنما قلنا يجانب من التقوى، لأن التفريط في إعداد القوة مع الاستطاعة ليس من التقوى في شيء.

([93]) صمد صمدا وصمودا: ثبت واستمر، ومنه قول علي ـ رضي الله تعالى عنه: (صمدا صمدا حتى يتجلى لكم عمود الحق): أي ثباتا ثباتا. المعجم الوسيط 522/1 مادة: صمد.

([94]) مر الشيء مرارة: صار مرا، فهو مرير، وهي مريرة، والجمع مرائر. المرجع السابق 862/2 مادة: مر.

([95]) وقع ذلك الحدث المفجع في 2003/4/9م.

([96]) انظر الحرب الأمريكية على العراق ص 130و134.

([97]) الحقيقة أن كثيرا من مسلمي اليوم ـ إن لم نقل جميعهم ـ غدا على علم بداء الأمة ودوائها، ولكن المشكلة في القدرة على استعمال الدواء وكيفية استعماله!! فهي أشبه بمريض علم داءه ووقف على دوائه، ولكنه لا يدري لماذا لا يستعمله؟ فهو في حيرة من أمره، يحتاج إلى من يعينه!!! والله تعالى وحده هو المستعان.

([98]) سورة التوبة، آية: 32 وهي بتمامها:{يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون}، وفي سورة الصف، آية 8:{يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون}.